

حسن دخيل الطائي

كلية التربية - جامعة بابل

بواعث النهضة الأدبية في الحلة وأهميتها

لقد كان لهذه المدينة العربية الإسلامية تاريخ حافل، بالأعجاز منذ تأسيسها في أوائل القرن الخامس الهجري وإلى يومنا هذا، ولعل ذلك يرجع إلى أسباب عديدة منها، إن مؤسسها بني مزيد عرب أقحاح، ينتمون إلى قبيلة بني أسد العربية التي كان لها شأن كبير في تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده، إضافة إلى أن بني مزيد هم من أمراء العرب وقد جسدوا في نفوسهم كل الخصال الحميدة التي كان حمل هذا اللقب يتطلبها، فقد جمعوا بين الفروسية والكرم والعلم والروح الأصلية المتوثبة إلى الغد المشرق، فكانوا شغوفين بالعلم حيث إن جلهم من الأدباء المتضلعين من قول الشعر مما جعلهم ذلك أن يولوا الأدب الاهتمام الذي يستحقه فكان بلاطهم يزدهر بالشعراء والأدباء والعلماء الذين أجزلوا لهم العطاء^(١)، والذين شكلوا فيما بعد نواة النهضة العلمية في الحلة.

وعلى الرغم من أن العصر الذي نشأت فيه الحلة كان يشكو الاضطراب السياسي وتمثل ذلك بظهور بعض الدويلات التي كانت تصطرع فيما بينها وما أعقبه بعد ذلك من سقوط بغداد على يد المغول غير أن هذه الأوضاع لم تضعف إرادة هذه الإمارة الفتية، ولم تنل منها بل على العكس فقد نهضت هذه المدينة بعد سقوط بغداد بمهمة المحافظة على التراث العربي والإسلامي من الضياع، وعملت على حفظه وقد تولى هذه المهمة طبقة كبيرة من العلماء والأدباء وكان لبني مزيد الفضل الأول في نشوئها. إضافة إلى الأسر العلمية الموسرة التي أخذت على عاتقها مهمة رعاية الحركة الأدبية والعلمية، وحشد الحليين لهذه المهمة كل إمكانياتهم، فكان الحليون يبتاعون الكتب بالمبالغ التي يتقاضونها من بيع محاصيلهم الزراعية ليضعوها في خدمة طلاب العلم^(٢).

غير أن النهضة الأدبية في الحلة قد بلغت أوجها في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وهو القرن الذي سبق النهضة الأدبية المعاصرة، ولعل ذلك يرجع إلى عدد من العوامل منها أن هذا القرن هو أقرب القرون إلى النهضة العربية الحديثة مما أتاح لجيلنا فرصة الاطلاع على نتاجه الأدبي قبل أن تعبت به يد الأقدار، ويصبح في زوايا النسيان. وعلى الرغم من أن الحكم العثماني عمل على عزل العراق عزلاً تاماً عن العالم طوال فترة حكمه، بيد أن النهضة الحديثة التي شهدتها تركيا والأقطار العربية المجاورة للعراق مثل بلاد الشام ومصر قد وصلت بعض إشعاعاتها إلى العراق^(٣).

كما لا ينكر وجود ولاية مصلحين أرادوا إصلاح ما أفسده الحكام الذين سبقوهم، وكانت دوافعهم مختلفة في هذا الميدان، في ذلك يقول الأستاذ محمد مهدي البصير إن الظروف هيأت لهذه النهضة حماة وانصاراً لم يكونوا في الحسبان فقد تعهدوا نفر من الولاة العثمانيين النباه، منهم داود باشا

الذي حكم العراق في سنة ١٢٣٢-١٢٤٧ وعلي رضا باشا الذي تولى حكم العراق ١٢٤٧-١٢٥٩ كما خصها بالرعاية والعطف عدد كبير من الأسر العراقية النبيلة، ومن هذه الأسر الحلية آل القزويني، وآل النحوي، وآل سليمان وغيرهم. فهي أسر توارثت مهنة الأدب طوال القرون السابقة ونبغ منهم عدد كبير من الشعراء والأدباء

(١) ينظر شعر صفى الدين الحلبي، جواد أحمد علوش، بغداد، ١٩٥٩، ص ٤١.

(٢) محاضرات القاهيا د. جواد أحمد علوش على طلبة كلية الآداب ١٩٧٤ ص ٣.

(٣) الشعر والشعراء في العراق، أحمد أبو سعد، المعارف، بيروت ص ٥٠.

المجيدين ،إضافة إلى رعايتها للعلماء والأدباء ،فقد نذرت نفسها لخدمتهم ،وسخرت لهم كل إمكانياتها المادية والمعنوية. (١)

والحلة من المدن العربية التي تمتاز بمناظرها الخلابة ،وسحر طبيعتها الفاتنة ؛وهذا ما ينشط القرائح ويرفح الإحساس ،ويعمق الشعور ويدفع الإنسان إلى التعبير عما يحس بشعر رقيق جميل^(٢). ويكاد يجمع معظم الباحثين الذين درسوا أسباب نهضة الحلة الأدبية على هذا العامل إذ قال الأستاذ الوائلي (كانت الحلة في موقعها الجغرافي الجميل موطناً من مواطن الشعر بل كاد الشعر أن يكون فيها سليفة يجري على كل لسان ،وحسبنا أن نعرف من موقعها أنها تطل على جانبي الفرات بالقرب من بابل القديمة ، وقد تعانقت عليها ظلال النخيل وأفياء الشجر الوارف ، وعلى مدى غير بعيد منها تتساب الفروع والجدال خلال البساتين الخضر)^(٣). ويشاطروهم الرأي ذاته الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء ،بقوله (وقد ساعد الحليين على هذه العبقرية ولطف القريحة والأريحية طيب التربة و لطافة الهواء وعذوبة الماء،ومن هذا شاع نعتها بالحلة الفيحاء)^(٤).

ويبدو تأثير هذه البيئة الجميلة في ازدهار الشعر في الحلة،في الأعداد الكبيرة من الشعراء الذين أنجبته هذه المدينة ،حتى أصبحوا طبقة لها ثقلها في المجتمع الحلي ، وأصبح الشعر ينساب على ألسنة الحليين من غير أن تختص به مجموعة دون غيرها ، فقد (كان نظم الشعر سهلاً ومطواعاً حتى على السنة الأميين الذين لا يقرؤون ولا يكتبون فيأتون به عذباً جميلاً لا خروج فيه عن قواعد اللغة وأوزان العروض فيذكر في ذلك موقف ظريف لشاعر كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب وكان لا يعرف نحواً ولا صرفاً ولا لغة ولا عروضاً ينظم نحتاً من قبله جرياً على الذوق والسليقة واستناداً إلى ما توحى إليه القريحة من دون تغاير في الأساليب والاختلاف في التراكيب فإذا اعترض عليه أحد بزلة لحن في العربية يقول:(راجعوا قواعدكم فالقول قولي) فيجدون الأمر كما قال)^(٥)

في حين رأى الأستاذ بدوي طبانة ،أن نهضة العراق الأدبية في القرن المنصرم التي تعد الحلة واحدة من أبرز المدن العراقية التي تمثلت فيها هذه النهضة - وليدة عوامل دينية بحتة.

احتل فيها الشعر الديني جزءاً كبيراً من أشعارهم ثم علل أسباب ذلك تعليلاً جميلاً قائلاً(في هذه الفترة أعرض أبناء البلاد عن السياسة أو أعرضت عنهم السياسة ،فليس لهم في الكثير الغالب طموح إلى منصب ،أو تطلع إلى وظيفة فانصرفت جهود أذكيائهم ،وذوي المواهب منهم ،إلى الأدب ،فكانت نهضة أدبية عواملها دينية بحتة عمت الأقاليم الجنوبية وكان مركز هذه النهضة بعض حواضر العراق وأشهرها النجف والحلة)^(٦).

أما الأستاذ البصير في حديثه عن نهضة العراق الأدبية في القرن المنصرم ،التي تشكل نهضة الحلة جزءاً كبيراً منها فقد ذهب إلى ترجيح العامل الذاتي ،الذي يقول أن الشعر بالنسبة للعراقيين شيء غريزي ،قد فطروا عليه،وان الله سبحانه عز وجل قد منحهم هذه الموهبة التي جعلت الشعر ينساب على ألسنتهم من غير تكلف أو

(١) ينظر نهضة العراق الأدبية ،محمد مهدي البصير ،مطبعة المعارف-بغداد ص١١

(٢) ينظر صفى الدين الحلي ص٤٠

(٣) الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر/إبراهيم الوائلي /مطبعة المعارف/بغداد ١٩٧٢ ط٢ - ١١٦

(٤) البلبليات/محمد علي البعقوبي ،مطبعة الزهراء -١٩٥١-المقدمة ص(٥)

(٥) المصدر نفسه ص٥٩

(٦) معروف الرصافي ، حياته وشعره وبيئته ،بدوي طبانة /القاهرة -١٩٥٧ ص٢١

عناء ،فقال:- (إذا فالعراق مدين بنهضته الأدبية في القرن المتصغر قبل كل شيء لما أتاه الله من سلامة الفطرة وصفاء الطبع وجودة السليقة) ^(١) إن مثل هذا الكلام ينطبق تماما على النهضة الأدبية في الحلة. وقد خلص الأستاذ محمد مهدي البصير إلى هذه النتيجة بعد أن أعيتته الحجة وهو يمعن النظر في عصره ، فلم يجد فيه شيئا يشجع على قيام نهضة أدبية ، فالعصر عصر ظلام ، والعراق مغلوب على أمره وقد تعاقب على حكمه ولاية عرف معظمهم بالسطوة والتسلط والطيش والنهب والجهل ولم يعبروا عن ادني اهتمام بشؤون الحكم ولم تهمهم مصالح المواطنين من قريب أو بعيد ، بقدر ما تهمهم مصالحهم التي كانوا يبتكرون الوسائل في سبيل ابتزاز الناس والحصول على أكبر قدر من الأموال والمكاسب ، فضلا عن أنهم من الأعاجم الذين لا يفقهون العربية ، ولا يتذوقون أدبها ، وهم في ذلك عكس الخلفاء والأمراء العرب الذين كانوا يعنون بالحياة الأدبية ، ويعطونها جل اهتمامهم.

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه أن الشعر العربي في العراق ، كان له شأن كبير في حياة العراقيين واحتل منزلة رفيعة من نفوسهم في جميع العصور وظل حياً صامداً في أحلك الظروف التي مرت على العراق وهو يقارع عوادي الزمن ، وإن هذا التراث الشعري الضخم الذي خلفه الأوائل . نهلت منه أجيال الشعراء في عصورهم المتعاقبة ، مما جعل (الأدب العربي لم تخب ناره ، ولم يخذل أواره فهو في تجدد وحياة ما دامت الآثار باقية على مر الأيام ، وما يزال الباحث يرد من منهلها العذب) ^(٢).

ونجد الرأي ذاته عند الأستاذ إبراهيم الوائلي الذي عزا ازدهار الشعر في الحلة ، إلى ما ورثته من ميراث شعري ضخم تأثرت فيه وسارت على نهجه فقال: (كان لها من تاريخها القديم ميراث ضخم من العلم والأدب والشعر كثير وقد حافظت على الميراث وسارت على نهجه وتعدد فيها الشعراء وقالة القريض) ^(٣).

وممن شغل بهذه النهضة الشيخ يوسف كركوش في كتابه تاريخ الحلة ، فقد أجهد نفسه من أجل أن يضع يده على الأسباب الحقيقية لها ، فانتهى به الأمر إلى القول (قد يتساءل المرء عن عوامل هذه النهضة الأدبية مع انحطاط الحياة السياسية آنذاك ، وسوء الحالة الاقتصادية ، وتناقص العمران أقول لا رابط بين الحياة السياسية والنهضة الأدبية ، إذ قد تكون الحياة الفكرية صدى لما يساور النفوس من تذمر لتأخر الحياة السياسية والاقتصادية) ^(٤). لقد أصاب الشيخ كركوش فيما ذهب إليه لأن فساد الأوضاع ، ربما يكون عاملاً قوياً في إذكاء روح النهضة ، والإلهام في قول الشعر ، لأنه يثير في نفس الأديب مشاعر الغضب والسخط على واقعه ، فيدفعه ذلك إلى الثورة لذلك نرى أن كثيراً من حالات النهوض تنشأ في ظل مجتمعات غارقة في التخلف والجهل ، وخير مثال يمكن أن يضرب بهذا الخصوص هو النهضة الأدبية التي نشأت في العصر الجاهلي ، وهيأت أذهان العرب لاستقبال الدين الإسلامي. وحدث مثل ذلك في كثير من بقاع العالم ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر روسيا القيصرية ، كانت تعاني من جمود الحياة فيها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لكنها شهدت نهضة أدبية مرموقة ^(٥). ومما تقدم يمكننا أن نخرج بنتيجة هو أن بذور النهضة تنمو في رحم مرحلة الانحطاط

(١) نهضة العراق الأدبية ص ١٣

(٢) تاريخ الأدب العربي في العراق/عباس العزاوي ، مطبعة المجمع العلمي /العراق بغداد- ١٩٦٢ ج ٢ ص ٢٨

(٣) الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر ص ١١١

(٤) تاريخ الحلة ، القسم الثاني ، يوسف كركوش ، المطبعة الخيرية-النجف-١٩٦٥ ص ٣٢

(٥) انظر تطور الشعر العربي الحديث في العراق د.علي عباس علوان/دار الشؤون النعمة/بغداد ص ٢٤

والتدهور، مثلما تنمو بذور التفسخ في جسم المجتمعات وهي تعيش في قمة ازدهارها ،لذلك نجد أن المرحلة الممهدة للنهضة العربية الحديثة ،قد ولدت داخل مرحلة الانحطاط نفسها .

واختلف الباحثون الذين تناولوا هذه الفترة بالدراسة في نظرتهم إليها فمنهم من ذهب إلى أنها نهضة أدبية ازدهرت فيها الحياة الأدبية ،ونجم عنها نبوغ عدد كبير من الشعراء وفي طليعة هؤلاء الأستاذ محمد مهدي البصير في كتابه نهضة العراق الأدبية التي تشكل نهضة الحلة مساحة واسعة من مؤلفه وبشاطره الرأي ذاته الشيخ محمد حسين ال كاشف الغطاء الذي قال (دخلت الحلة قبل نصف قرن أو أكثر ولعلها أول زيارتي لها،فوجدت الشعر الرقيق الندي والأدب البارح الذي يأخذ بالأفئدة والمسامع وجدته يسايرني أتى سرت ويحل معي أينما حللت، وجدته يمشي معي في الشوارع والأزقة،في الأسواق والحوانيت لا يختص به عالم عن جاهل ولا يمتاز به متعلم عن أمي)^(١).

غير أن هناك عددا من الباحثين رأى أن شعر هذه الفترة هو استمرار لشعر العصور المظلمة ((أوغل معظم شعراء القرن التاسع عشر في التقليد وكان للشعر عندهم في أكثر أمثله،لعبة أو تهنته أو طريقة مزاح أخوانية أو وسيلة تقرب أو نفاق أو كشفاً عن براعة لغوية أو إثباتات لقدرات في النظم سريعة))^(٢) في حين رأى آخرون أن شعر القرن التاسع عشر لم يكن نفسه ممهدا للنهضة لأنه (بقي يدور حول الموضوعات التقليدية في غير أصالة ولا إضافة أو ابتكار ،وظل مقيدا في الأعم الأغلب بقيود الصنعة البديعة)^(٣).

ومهما قيل من آراء مختلفة في شعر هذه الفترة ،لا بد لنا من القول إن أولى الحسنيات التي يمكننا أن نسجلها له كثرته ،إذ كانت من أخصب فترات العصور المظلمة نتاجاً وأغزرها شعراً بخاصة في مدينة الحلة التي نحن بصدد دراسة نهضتها ،وان هذه الطبقة الكبيرة من الأدباء نشؤوا في ظل فترة مظلمة ليس فيها وال يرى الأدب،أو دولة تتفق عليه الأموال السخية ، وان هذه النهضة الأدبية من أولى أهدافها هو تعليم الناشئة العربية علوم لغتهم ودينهم ،وان مثل هذه المهمة السامية كان لها ابلغ الأثر في المحافظة على هوية الأمة العربية الإسلامية من الضياع فهي وسيلة من وسائل مقاومة العرب للمد الأعجمي ، كما أنها الأساس الذي انطلق منها شعراء النهضة والإحياء .

أما فيما يقال إن شعر هذه الفترة موغل في التقليد ، وليس فيه ابتكار فلا يقلل من أهمية النهضة وخاصة إذا ما عرفنا (أن الحركة الأدبية خلال القرن التاسع عشر بدأت على شكل إحياء القديم والسعي وراء مضاهاة القدماء لان مصدر هذه الحركة كان المدارس العربية القديمة) .^(٤)

إن تاريخ الأمم يكاد يتفق على أن النهضة تبدأ في إحياء تراثها ومحاولة محاكاة ذلك التراث والتقليد بمنه وتنتقل مرحلة التجديد وفي ذلك يقول أحد الباحثين (إن روح التقليد والمحاكاة في أكثر أشعارهم وذلك طبيعي لأن كل نهضة أو حركة تبدأ مقلدة ، تتطلع إلى النماذج الأفضل تحاكيها وتتسج على منوالها حتى تقف على أقدامها، معتمدة على نفسها ، فما من حركة أدبية تنهض دون إرماصات أو مقدمات)^(٥). وإن مثل هذا قد حدث في هذه الفترة ، فقد اتخذ الشعراء من القديم منطلقاً للتجديد فالنفحات الحارة التي أطلقها شعراء الحلة في

(١) انظر مقدمة كتاب البابليات ص ٢

(٢) الشعر العراقي الحديث مرحلة وتطور/جلال الخياط دار الرائد العربي ١٩٨٧/ص ١٢

(٣) أدب العراق في العهد العثماني د.علي الزبيدي بحث نشر في مجلة كلية الآداب جامعة بغداد العدد(٢٦) لسنة ١٩٧٩ ص ١١

(٤) نظرات في التيارات الأدبية الحديثة في العراق،محاضرات ألقاها د.جميل سعيد ،الدراسات العربية، ١٩٥٤ ص ٤

(٥) الشعر في الحلة محمد حسن الحلي ،رسالة الماجستير ،جامعة بغداد، ١٩٧٧ ص ١١١

القرن التاسع عشر في شعر الشكوى، هي تعبير عن ضجرهم من واقعهم الفاسد الذي عجز بالتناقضات الحادة من فقر ومجاعة وأوبئة وكوارث وفساد الولاة، فقد تحولت من شكوى إلى شعر سياسي واجتماعي واضح المعالم والسمات.

كما ان هذه الفترة قد أبدعت لونا من الشعر يدعى البند، وان مؤسسه شاعر حلي هو محمد بن خلفه وهذا الشعر رأى فيه بعض الباحثين أنه كان يمكن له أن يكون الممهّد للثورة الشعرية الكبيرة التي حدثت في منتصف القرن العشرين لو قيض لشعرائها الاطلاع عليه^(١). أما الاتجاهات الوطنية للنهضة فيمكن أن نراها واضحة في شعر الشكوى الذي بدأ شعراً ذاتياً يعبر عن مشاعر الحزن والألم في نفس الشاعر ثم تحول إلى شعر سياسي واجتماعي واضح المعالم في الفترة التي أعقبت إعلان الدستور، يعبر عن هموم الشعب وآلامهم ويحمل أهدافهم وتطلعاتهم.

تطور شعر الشكوى:

وعلى الرغم من أن هذا اللون من القريض كان موجودا في الشعر العربي منذ القديم لجأ إليه بعض الشعراء ليعبروا عما يختلج في نفوسهم من الحزن والألم وبخاصة عندما تدبر عنهم الحياة، وتشتد عليهم عوادي الزمن، وتضيق عليهم الأرض بما رحبت فيعبرون عن تلك المشاعر بشعر يذوب حزناً وألماً، ويطلقون الآهات الحارة المنبعثة من أعماق نفوسهم المكلومة، يندبون حظهم العاثر ويشكون دهرهم الغادر.

بيد أن شعر الشكوى في هذه الفترة يكتسب أهميته في كونه يمثل صورة صادقة لطبيعة الحياة القاسية التي عاشها العراقيون في هذه الفترة وهم يقارعون واقعهم المرير وما كان يرميهم به من مأس وويلات، لذلك نرى أن شعر الشكوى شكل ظاهرة لافتة للنظر إذ قلما يخلو منه شعر شاعر، وإن أجواء الحزن ألقت بظلالها الثقيلة على شعراء هذه الفترة الذين عبروا عنها تعبيراً صادقاً في غرض الرثاء وبخاصة رثاء آل البيت والإمام الحسين (ع). ((فجاء رثاء الشعراء للحسين صورة صادقة كل الصدق للعواطف المكبوتة ولا يأتي الرثاء إلا عن شعور صادق ووفاء مستديم وإيمان عميق فرثاء الحسين أروع مثل للانفعال يفيض بروحانية عالية تمثل الجزع الحائر والفجعية النادرة)).^(٢)

وشعر الرثاء في معظمه يعبر عن خيبة الأمل التي أصابت العراقيين في الفترة التي أعقبت سقوط بغداد وما نجم عنها من زوال للسيادة الوطنية إذ أصبح العراقيون مسلوبو الإرادة مغلوبين على أمرهم واقعين تحت رحمة المحتلين لا حول لهم ولا قوة.

فقد أثرت هذه الأوضاع تأثيراً عميقاً في نفوس الشعراء، لذلك نجدهم قد أسرفوا في غرض الرثاء لأنهم وجدوا فيه ما يلائم نفوسهم الحزينة واتخذوا منه وسيلة ينفسون به عن أحزانهم التي ضاقت بها ذراعاً صدورهم (لأن مصائب الإنسان مهما عظمت لا تقارن بمأساة الحسين فكان الشاعر يتخذ من الحسين وثباته وصبره نبراساً يهتدي بهدية)^(٣).

كما أن رثاء آل البيت (ع) اتخذ بعض الشعراء وسيلة للتعبير عما يضطرب في نفوسهم من ثورة وسخط على واقعهم المزري ((فكان الحلي * وآخرون يفصحون عن آلامهم الشخصية من خلال مرثيهم لآل

(١) قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، دار العلم للملايين، بيروت ص ١١

(٢) شعر العراقي أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر، د. يوسف عز الدين، دار المعارف ص ٨٨

(٣) المصدر نفسه ص ٨٨.

البيت على نحو غير مباشر خوفاً من بطش السلطة وتعسفها و ملاحظتها لمن يمس مصالحها فتقترب لديهم أحزان الماضي بالأم الحاضر في طقوس يكون الشعر مدارها ومآلها ((^(١).

فإن مثل هذه النفحات الحارة التي أطلقها شعراء القرن التاسع عشر تمثل أولى مظاهر الرفض للواقع الجائر الذي فرضه الغزاة على العراقيين ،كما إنها تمثل البداية العفوية للنهضة الحديثة التي بدأت منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر وكانت بدايتها بسيطة لا تتعدى ردود الأفعال السلبية التي ظهرت على السنة بعض الشعراء نحو واقعهم المّزري.

كما انه ليس غريباً أن نجد اضطراباً في مواقف الشعراء ،فنرى بعضهم يتخبط في مواقفه فتارة ناقماً ساخطاً على واقعه الفاسد،وتارة أخرى يمالئ ويتزلف إلى الحكام العثمانيين ،لأن هذه المرحلة تمثل بداية النهضة الحديثة بعد أن عاش العراقيون في انقطاع حضاري دام عدة قرون حرموا فيها من أبسط حقوقهم حتى أمسوا في جهل مطبق ،جعلهم لم يدركوا بعد حقيقة واقعهم المّزري والجهات التي تقف وراء معاناتهم ؛فهم لم يعرفوا أن الحكم العثماني هو المسؤول الأول عن سوء أحوالهم العامة في هذا القرن لذلك ؛نجدهم صبوا جام غضبهم على الدهر ،وكان الدهر هو الذي ألحق بهم هذا الأذى كله والأقدار هي التي خلقت منهم فقراء معوزين ، ومن آل عثمان وولاتهم أغنياء مترفين .

ولكن حين تزداد قساوة الواقع ولم يستطع الشعراء تحملها،فيجأرون بالشكوى ويفصحون عن تدمرهم من مفاصد واقعهم ، ويدفعهم ذلك في بعض الأحيان إلى القيام بردود أفعال سلبية تعكس سداجة تفكيرهم منها على سبيل المثال يتخذون الهجرة من موطن الذل وسيلة للخلاص.وإن ذلك يرجع إلى أن العراق كان معزولاً عن العالم وبعيداً عن النهضة الأوروبية إضافة إلى أن ((ملامح العصر وأبرز خطوط ثقافة القرن التاسع عشر ونوعية التعليم والثقافة التي يحصل عليها الشاعر منذ صباه على الطريقة التقليدية ما بين الكتاتيب والحلقات تجعلنا نتأكد أن ضيق الأفق وسطحية التفكير وسداجة النظرة إلى الحياة)).^(٢) ينسجم بها غالبية الشعراء غير أن هناك شعراء اتخذوا من الشعر الديني وسيلة لتأجيج المشاعر الوطنية ويمكن لنا أن نسوق أمثلة من الشعر قالها شعراء الحلة في هذه الفترة، ونبدأ بهذا الحدث الذي وقع قبيل أن يبدأ القرن التاسع عشر بسنتين الذي تضمن ما يأتي ((في سنة ١٢٥١ هجرية كان أحد رجال الحكم في الحلة شخص اسمه محمود وكان عسوفاً فتاكاً؛وقد فتك ببعض رجالات الحلة،وهدم دورهم وسفرهم إلى بغداد تنكيلاً بهم ،وان ما وقع عليهم كان بسبب ميلهم إلى الخزاعل))^(٣).الذين كانوا في صراع مع الحكومة العثمانية في هذه الفترة.

وقد هزت هذه الواقعة مشاعر أحد الأدباء الحلبيين الذي وصفها بأسلوب مؤثر قال :-((...فأتوا بأعيانها مقرنين بالأصفاد ،بلا راحلة ولا زاد ،وكانهم أسارى بين الأجناد،من دار السلام بغداد ،إلى شر العباد وأضيعهم للرشاد ففعل بهم فعل من لا يقر بالمعبود ولا يعترف باليوم الموعود من تسمى بعكس اسمه محمود..فهدمت الدور ،وهتكت الستور فصبرنا والله على خلقه غيور ،فأخذ أخذ عزيز مقتدر وأصبح المعتر به يعتبر ،وفي هذه الواقعة قال الكامل والأديب الحر النجيب محمد ابن إسماعيل^(٤).

^(١) الشعر العراقي الحديث مرحلة وتطور ص٣١ . (*) الحلبي هو الشاعر حيدر الحلبي.

^(٢) تتطور الشعر العربي الحديث في العراق ص٢٤

^(٣) تاريخ الحلة الجزء الثاني ص٢٢٩

^(٤) هو محمد بن إسماعيل والملقب بابن الخلفة قال قصيدته في وصف ما أرتكبه الكولت من الفضائح بالحلة على عهد حاكمها محمود آغا السفاك وذلك عام (١٢١١) هجرية. انظر البابليات ج٢-ص

قصيدة منها :-

عليك أبا السبطين لا يمكن العتب
إلى متى ذا الجور يحمله القلب
أفي كل يوم في ربي الهم والعنا
يروح بنا ركب ويغدو بنا ركب
وأظلمت الفيحاء من بعد بهجة
وكدر من آفاقها الشرق والغرب

فما أنشدت هذه القصيدة في المحافل حتى سلط الله عليه من قتله شر قتلة ((^(١))

وهذا النص يعد صورة صادقة معبرة عن حقيقة الحكم العثماني القائم على الظلم والتعسف والشاعر هنا اتخذ من الشعر الديني وسيلة لتأجيج مشاعر وحماسة الناس.

وتصبح ظاهرة الحزن بارزة في شعر هذا العصر ((فقد نسي العراقي خلال هذه الفترة شيئاً اسمه السرور، ولم يعد يحس في طعم السعادة، ونسى صورة المرح والحبور ولا توجد منه في ذهنه إلا الأشباح الباهتة ((^(٢)). والحلة واحدة من مدن العراق التي لحقها ما لحق العراق من ظلم وإذلال، وهي تزرع تحت الاحتلال العثماني. الذي أمعن في تخريب البلاد وغالى في اضطهاد العراقيين بعد أن جردهم من حقوقهم وكبّلهم بقيوده الجائرة مما جعل الشعراء يكثر من تنديدهم بالذل والدعوة إلى قيم البطولة والمجد. ويبدو ذلك واضحاً في قصيدة الشاعر سليمان الصغير التي قالها في رثاء الحسين (ع):-

أرى العمر في صرف الزمان يبيد
ويذهب لكن ما نراه يعود
فكن رجلاً إن تنض أثواب عيشه
رثاء فتوب الفخر منه جديد
وأياك أن تشترى الحياة بذلة
هي الموت والموت المريح وجود
وغير فقيد من يموت بعزة
وكل فتى بالذل عاش فقيد
لذلك نضا ثوب الحياة ابن فاطم
وخاض عباب الموت وهو فريد^(٣)

أما الشاعر حسن العذاري فتبدو ثورته أكثر عنفاً وقوة مما سبقه من الشعراء فهو لا يطيق حياة الذل، ولا يمكن له أن يعيشها أو يرتضيها، وهو يرى أن الأرض ليست ملكاً لأحد وإنما هي مُشاعة بين الناس فيقول حسن العذاري :-

لم أبق قاطناً في ذلة
وأرى الأرض إلى الخلق مشاعة
وديار الذل لا يَبْقَى بها
غير من عاش هواناً وخناعه^(٤)

والهجرة هي واحدة من ردود الفعل السلبية التي يلجأ إليها الشاعر عندما تشتد عليه وطأة واقعه المزري ولم يعد قادراً على تحمله، وهي شكل من أشكال الهروب من الواقع وإن مثل هذا اللون من الشعر، قد كثر في هذه الفترة ويعد عبد الغني جميل فارس ميدانه^(٥)

بيد أن هناك ظاهرة بارزة في مجتمع القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين هي ظاهرة الفقر قد استشرت فيه، وتحولت في معظم السنين إلى مجاعة مهلكة فتكت بعشرات الألوف من الناس، مما جعلها تستأثر باهتمام شعراء الحلة. والحلة على الرغم من أنها تقع على أرض خصبة وافرة الخيرات، غير أن أبناءها ظلوا يشكون شظف العيش، ولعل ذلك يرجع إلى أن موارد هذه المدينة استحوذ عليها القلة من الناس وهم الولاة والموظفون

(١) تاريخ الحلة ج ٢ ص ٢٣

(٢) الشعر العراقي أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر ص ٢٨.

(٣) شعراء الحلة ج ٢، ص ٢٣

(٤) شعراء الحلة ج ٢، ص ٥٢

(٥) ينظر الأدب العربي الحديث دراسة في شعره ونثره، د. سالم أحمد الحمداني و د. فائق مصطفى أحمد، جامعة الموصل ١٩٨٧ ص ٣٥.

العثمانيون وبعض العراقيين السائرين في فلك السلطة العثمانية فالسلطان عبد الحميد كانت له إقطاعات في العراق تسمى الأراضي الحميدية تزرع ويذهب حاصلها اليه ^(١). وما يقال عن السلطان يقال عن الولاة والموظفين العثمانيين، في حين حرم العراقيون من موارد بلدهم فهم يكدحون ويشقون غير أنهم لم يجنوا من شقائهم هذا سوى البؤس والحرمان. وهذا الشاعر حماد الكواز سئم الحياة ليس كما سئما زهير بن أبي سلمى لطولها بل لضنك العيش الذي هو فيه ومما زاده المأ هو أن هناك اشخاصاً تبنى لهم القصور وينعمون بحياة مترفة في الوقت الذي ظل الآخرون محرومين يقاسون شظف العيش فيقول:

ولقد سئمت من الحياة لضنكها يارب فاجعلني من الأموات
ممن غدت تبنى القصور لهم ومن ذهبوا بأخراهم إلى الجنات
ونجد الحسرة ذاتها عند شاعر آخر هو حماد نوح الحلبي ^(٢). فقد امتلأ قلبه لوعة وألماً عندما رأى الناس تحسده على الرغم من معاناته الفقر المدقع:-

ولحر قلباه كم أحنى على كمد هذي الضلوع واطوبها على شجن
يدي من المال صفر لم تتل إربا وهذه فضلاء العصر تحسدي ^(٣) ^(٤)
ويخرج الشاعر حسن البصير برؤية جديدة، فيها نقد لاذع للجشع والتهاافت على كنز الأموال واتخاذها وسيلة لتكوين الجاه والنفوذ، وإخفاء المثالب، فقد أبطل الشاعر مزاعم هذا النفر من الناس ورأى أن العمل شرف، وغاية نبيلة، وخاصة حين تكون الثروة وسيلة إلى مساعدة الفقراء والمحتاجين من الأقرباء والناس، وتحقيق غاية نبيلة في صيانة العرض والشرف، وإن مثل هذه المعاني هي إنعكاس لتقافته الدينية والأدبية، وأجمل ما في رؤيته هي نفيه الفكرة القائلة إن المال يصنع الجاه لصاحبه، ورأى أن العلم وحده هو الذي يمنح الإنسان المنزلة المرموقة في المجتمع.

أرى الكسب للإنسان أسنى المطالب يسان به عن رحمه والأجانب
ومما شجاني أنني بين معشر لهم ثروة أخفت وجوه المعاييب
يقولون إن الفقر صعب فقلت والد أسى يلتطي بين الحشا والترايب
أرى أصعب الأشياء في الدهر هينا إذا لم تصب عرضي سهام المثالب
وقالوا نرى أعلى المراتب أمره فقلت لهم في العلم أعلى المراتب ^(٤)

وعندما تشتد قساوة الواقع على الشاعر ويصبح غير قادر تحملها بعد أن تغلق بوجهه سبل النجاة من المحن التي هو فيها، فيلجأ الشاعر إلى معتقداته الدينية مستعينا بها فيدعو الأئمة والأولياء الصالحين ليفرجوا عنه هذه الكربة ويزيحوها عن صدره الغم، وكثير ما كان الشعراء يستغيثون بالإمام المهدي المنتظر ^(٥). الذي رأى فيه الشاعر سليمان الصغير ^(٦). الأمل الذي يعول عليه في إزالة الشدائد فيقول :-

(١) تاريخ الحلة ص ١٥٥
(٢) هو محمد بن سليمان بن نوح الحلبي الغريب الكعبي الشهير بحمادي نوح، أحد شيوخ الأدب في عصره ولد سنة ١٢٤٠ هـ ١٨٢٠م - وتوفي ١٣٢٤..... انظر شعراء الحلة والباليليات ج ٢، ص ٢٩٨.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٩٨.
(٤) المصدر السابق ص ١٨٣.
(٥) تطور الشعر العربي الحديث في العراق ص ٢٧.
(٦) هو أبو حيدر السيد سليمان بن داود الكبير الحسيني الحلبي شاعرا مشهورا واديب كبير ولد في الحلة. انظر شعراء الحلة ج ٢ ص ١٨.

زعم الزمان علي أب
تكذب الزمان بزعمه
فالقائم المهدي عني
كل ضيق فيه يفرج^(١)

وتبدو قصيدة ابنه حيدر الحلبي أكثر وضوحاً، وهو يدعو الإمام المهدي المنتظر إلى تحقيق أماله في القضاء على الظالمين، الذين تسلطوا على رقاب الناس وساموهم ذل الهوان ويعبر الشاعر عن نفمته على الحكام العثمانيين في دعوة الإمام المهدي المنتظر إلى أن يعلنها حرباً شعواء تقطع دابر الظالمين وترجع الحق إلى نصابه فيقول:-

أقائم بيت الهدى الطاهر
وكم يتظلم دين الإله
كم الصبر فت حشا الصابر
إليك من النفر الجائر

إلى أن يقول:-

إلى م وحتى م تشكو العقام
وكم تتلظى عطاش السيوف
سيفك أم الوغى العاقر
إلى ورد ماء الطلى الهامر
أثرها فديتك من تائر
وقدها تميّت ضحى المشرقين

وهكذا ((يستمر الشاعر في هذه النبرة الحماسية مصوراً بشيء من الوضع ظلم السلطة العثمانية))^(٢). وان

ثورة حيدر الحلبي هذه جاءت رد فعل على قرار السردار عمر باشا الذي يقضي بتطبيق التجنيد الإجباري الذي يشمل الشاعر نفسه، لذلك تراه يهاجمه في هذه القصيدة ويصفه برجس الضلال^(٤). ومنها قوله:-

ولا بد من أن ترى الظالمين
بسيفك مقطوعة الدابر^(٥).

وعندما يشتد الصراع بين الحكام العثمانيين والعراقيين نجد أن الشعراء الحليين يقفون إلى جانب شعبهم، فهذا الشاعر صالح التميمي المقرب من داود باشا الذي تربطه به وشائج حميمة غير أنه غض الطرف عن تلك العلاقة، وتعاطف مع أحد وجهاء الحلة الشيخ موسى ابن جعفر الجناحي حاول نائب داود باشا في الحلة أن ينكل به في ذلك يقول يوسف كركوش ((كان نائب داود باشا في الحلة سليمان أغا كان كثير الهواجس والأوهام فمن ذلك أنه لما رأى تضامن الحليين ومراقبتهم لأعماله عزا ذلك إلى الشيخ موسى نجل العلامة الشيخ جعفر الجناحي، واعتبره خطراً على أمن الحلة وسلامتها، فطلب إلى الشيخ الخروج من الحلة، وقد استاء أهل الحلة من هذه السياسة الهوجاء.

فقال الشاعر صالح التميمي :-

بمن تفخر الفحاء والفخر دأبها
وغادرها من بعد عز ومنعة
وعنها سار موسى بأهله
تحاذر كيد السامري وعجله

ولما وصل إلى مسامع داود باشا ما قاله الشيخ صالح عاتبه فأجابه

زهت بأبي داود حلة بابل
فألبسها بالأمن بردة عدله

(١) المصدر نفسه ص ٢٢.

(٢) ديوان حيدر الحلبي عن ينشره علي الخاقاني/النجف-ج/١. ١٩٥٠ ص ٧٣-٨٣.

(٣) تطور الشعر العربي الحديث في العراق ص ٢٧.

(٤) انظر الشعر في الحلة ج/٢ ص ٢٧.

(٥) الشعر العربي الحديث مرحلة وتطور ص ٣٣-٣٤.

تخاذر كيد السامري وعجله^(١)

فكانت قديما قبل موسى وقبله

وتعاطف الشاعر حسين سليمان مع الشيخ موسى في قصيدة راسله بها:-

فهو خلف الطعن المسوق مشوق

لا تسل بعد ما جرى عن فؤادي

وهو في لجة الدموع غريق^(٢)

وعجيب بقاء إنسان عيني

وهي إن تبدو مشاعر ذاتية إلا انها تحمل في طياتها عواطف مكبوتة تعادي العثمانيين ولا تطيق وجودهم. غير أن مناهضة العثمانيين تظهر واضحة في الشعر الذي قيل في الوقائع التي ارتكب فيها العثمانيون جرائم مروعة، مثل وقعة نجيب باشا في كربلاء التي راح ضحيتها عدد كبير من أهالي كربلاء، وقد حدثت بسبب امتناع أهالي كربلاء عن دفع الضرائب التي كانت تفرضها السلطة العثمانية فهزت هذه المجزرة الدموية مشاعر الشاعر صالح الكواز فنظم قصيدة حماسية هجا فيها العثمانيين هجاءً مقذعاً وتوعدهم بالثورة على سلطانهم.

ولم ينمه منهم نزار وخندف

أيئك أمر العُرب مَنْ لا أبا له

محل وما للحلم إن هاج موقف

لئيم فما للصفح عند اقتداره

لديه وأعداهم له المتلطف

أحب الوري مَنْ ليس يَحْنو عليهم

فكيف بأبناء العفائف يلف

ومن لقطته العاهرات من الخنا

وإن حال فيه عن سواه التخلف

وإننا لندري أن يومك كائن

لطول أناة منك للقلب تحتف^(٣)

ولكننا لا نستطيع تصبراً

وكذلك يفصح الشاعر عما يضمه من مشاعر الاستياء تجاه الحكم العثماني في الوقائع المهمة التي تقع بين العرب والعثمانيين، فتراها ينتصر لأبنائه ويقف إلى جانبهم ويهاجم العثمانيين ويندد بظلمهم وتعسفهم وهذا الشاعر جعفر الحلي قد اهتز فرحاً وهو يسمع أنباء ثورة الإمام بدر على السلطة العثمانية فيبادر إلى نظم القصيدة يعلن فيها عن تأييده له ومباركته ثورته.

والأمر أمرك لا ما تأمر الدول

مُرْ وأنه وأحكم فأنت اليوم ممثّل

أأنت زدت علواً أم هم سفلوا

عناك الملوك انتثوا عجزاً وما علموا

إلى أن يقول :-

كما تذلل إلى جرارها الإبل^(٤)

لولاك ذلت بنو الأشراف قاطبة

وله قصيدة أخرى أيد فيها بعض السادات من أشراف مكة الذين أرادوا التخلص من السيطرة العثمانية.^(٥) ومن البديهي أن تكون مثل هذه الأحداث هي الوسيلة الفاعلة في نمو الوعي الوطني المناهض للعثمانيين، لأنها تكشف حقيقة الحكم العثماني القائم على الظلم والتعسف، كما أنها تهز مشاعر الشعراء وتثير في نفوسهم روح النخوة العربية الراضة للذل والخضوع، وتحركهم نحو التطلع إلى حياة جديدة خالية من الاستبداد والتعسف.

(١) تاريخ الحلة ج/١ ص ١٣٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٥.

(٣) ديوان صالح الكواز الحلي - مطبعة النجف الأشراف ١٣٨٤، ص ٨٠-٨١.

(٤) تاريخ اليمن، عبد الواسع بن يحيى الواسعي، مطبعة حجازي، القاهرة، ط ٢، ص ٦٢٩.

(٥) انظر الاتجاه القومي في الشعر العراقي ص ٤٥.

الشعر السياسي والاجتماعي:-

ولكن مما لا ينكر أن الوعي الوطني طوال القرن التاسع عشر ظل بسيطاً وعفوياً ينمو ببطء ولم يفصح عن نفسه حتى مطلع القرن العشرين ولعل ذلك يرجع إلى عدة عوامل منها أن الدستور أراح عن صدور الوطنيين شبح الاستبداد ومنحهم في بادئ الأمر حرية القول مما جعلهم يعربون عما يختلج في نفوسهم بحرية تامة من غير أن يخشوا لائمة أحد، فطبيعة الحكم العثماني القائمة على الإرهاب وكبح الحريات فإنها لا تسمح لأحد أن يعبر عن أفكاره بحرية، إذ إن أي نقد يوجه إلى السلطة العثمانية يعد كفراً وخروجاً عن الدين ويعاقب صاحبه بعقوبات تصل إلى الإعدام والعامل الآخر هو أن العثمانيين حكموا البلاد بأسم الدين وحاولوا أن يشيعوا بين الناس أن حكمهم استمرار لحكم الخلافة العربية الإسلامية وغالوا في الأمر حتى قالوا أن السلطان العثماني خليفة المسلمين وظل الله في الأرض وأنه مطلق الإرادة في الرعية.

وفي مطلع القرن العشرين، وبخاصة بعد إعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨، شهد العراق نمواً متسارعاً في تطور الوعي الوطني في العراق، وقد تضافرت على ظهوره عوامل عدة منها أن بعض أفكار النهضة قد دخلت إلى العراق عن طريق بعض المجلات العربية التي كانت تصدر في بلاد الشام ومصر في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين كما أن إصلاحات الوالي مدحة باشا التي وسّعت أفاق العراقيين وغرست في نفوسهم روح التطلع إلى الإصلاح والتغيير يضاف إلى ما قلناه إن أبرز أعلام النهضة في العراق بعد الدستور، هم العراقيون الذين سافروا إلى البلدان العربية والأجنبية المجاورة التي سبقت العراق بالنهضة مثل بلاد الشام ومصر وتركيا فقد اطلعوا على الأفكار الحديثة من خلال احتكاكهم بأعلامها في هذه البلدان وكان أبرزهم الزهاوي والرصافي^(١).

لقد انعكست هذه الأفكار الجديدة على الشعر، وعملت على تطور أغراضه (فتجافى الشعراء عن المدح وكفكفوا عن دموع الرثاء ونظموا أبواباً جديدة من الشعر استوحوها من أحداث جيلهم وواقع زمانهم وطبيعة العلاقات التي رزح فيها قومهم)^(٢). وأصبح الشعر السياسي والاجتماعي ظاهرة لافتة للنظر حيث سخر معظم الشعراء في هذه الفترة شعرهم لخدمة قضايا الأمة في الدعوة إلى التحرر والتقدم من خلال نقد الظواهر المدانة المتمثلة بالجهل والأمية، والفقر، والخضوع للسيطرة الأجنبية، نقداً لاذعاً وحضوا العرب على بعث المجد العربي من جديد، من خلال الأخذ بناصية العلم والمعرفة، والثورة بوجه الاستبداد والظلم والاحتلال الأجنبي.

لقد اعتنق شعراء الحلة الأفكار الجديدة، ولقيت صدى طيباً في نفوسهم التي أنهكها الاستبداد والظلم، لذلك نجدهم أيدوا بكل جوارحهم حركة الإصلاح التي أرغمت عبد الحميد السلطان على الرضوخ لإرادة الأمة والتخلي عن الاستبداد، والعمل وفق حياة دستورية تضمن للشعوب المنضوية تحت لواء السلطنة العثمانية الحرية والمساواة.

وانضم بعض شعراء الحلة إلى حركة جمعية الاتحاد والترقي، التي تزعمت حركة الإصلاح في تركيا والبلدان التابعة لسيطرة العثمانيين، وترأس الشاعر محمد علي القزويني فرع جمعية الاتحاد والترقي في الحلة وظهر دوره بارزاً في وقوفه إلى جانب الإصلاح ضد الاستبداد في البرقية التي رفعها إلى السلطان عبد الحميد

(١) الشعر والشعراء في الحلة ص ٥.

(٢) انظر تطور الشعر العربي الحديث في العراق ص ٩٧.

عام(١٩٠٩)عندما حاول أن ينكث العهد الذي قطعه للشعوب العثمانية بمنح الدستور واسترداد سلطانه المطلق من خلال ابتداء صيغة جديدة بديلة عن الحياة الدستورية اسمها الجمعية الحميدية^(١).

فقد ندد القزويني بتلك المحاولة اليائسة، وهاجم السلطان عبد الحميد وطلب منه أن يستسلم لإرادة الأمة ويتنازل عن عرشه وإلا سوف يحمله مسؤولية إراقة دماء المسلمين واضطراب الأمن في البلاد، فقد لقي تهديده هذا تأييداً كبيراً من لدن شعراء الحلة الذين سارعوا إلى إعلان مباركتهم هذه الخطوة التي أقدم عليها السيد القزويني في مناهضة الاستبداد الحميدي ، ومنهم الشاعر يعقوب بن الحاج جعفر الذي قال قصيدة جميلة استهلها بمدح القزويني:-

محياك في أفق الهداية أشرقاً	فأذن أن يُمحي الضلال ويمحقا
وقد كان جيد الدهر قبلك عاطلاً	ومنك بعقد الفضل عاد مطوقاً
ومنك المزاييا الغر كانت خليقة	وطبعاً وكانت في سواك تخلقاً
إذا افتخرت قوم بتيجان ملكها	فأنك زدت التاج عزا ورونقا

ومن هذه الأبيات التي يشير فيها إلى نكث السلطان بعهده ويثني على موقف القزويني الحازم والساعي إلى الحرية والعدل والمساواة وعدت دعوته إلى العدل فتحاً اسلامياً جديداً بعد انقطاع حضاري طويل عاشته الأمة في غياهب الظلم والظلام.

رَعَيْتْ موافيق الهدى يوم أخلفت	رجال له لا تتدع عهداً وموثقا
وغادرت ربَّ القصر يزعد صاغراً	لأمرِكْ مُدْ فاجأته فيه مُبرِّقا
فما دفعت عنه الفيالق عندما	رأى كلَّ حرف منك وافاه فيلقا
و(بَرْق)سواك ما فيه طائل	وما كان إلا بارقا متألّقا
وقد كنت للإسلام أول فاتح	من العدل بابا لم يزل قبل مغلقا
فنام قرير العين خائف دهره	وقد كان مرتاع الجنان مؤرقا
وكم من أسير للزمان مقيد	مننت بلا من عليه فاطلقا ^(٢)

وواضح من هذه الأبيات أن الشاعر قد اطلع على مبادئ الإصلاح الجديدة، وأدرك منافعتها للناس، ولعل أجمل ما ورد فيها، أنها تجعل الخائف المرتاع أيام الحكم العثماني المتعسف ينال قرير العين ، هائناً هادئ البال في ظل الحياة الدستورية التي دعت إليها الحركة الإصلاحية ، وبخاصة بعد أن رأى الأغلال التي كانت تكبل الناس في العهد الحميدي، قد تحطمت وحرية الناس قد أطلقت. ونظم الشاعر عبد المطلب الحلبي قصيدة تشبه إلى حد ما القصيدة التي سبق وذكرناها في مدح القزويني ، وهو يقف بوجه الطغيان الحميدي^(٣).

ويعد عبد المطلب الحلبي فارس حلبة الشعر الوطني في الحلة ، وشاعرها الأول ومن أشد المتحمسين للدستور ، والمناصرين له، والمنددين بالاستبداد^(٤). ويبدو ذلك واضحاً في هذه القصيدة التي بارك فيها العملية العسكرية التي قامت بها الحركة الإصلاحية التي أجبرت السلطان عبد الحميد على التخلي عن العرش وأشاد في دورها في اجتثاث الاستبداد ونشر العدل والتساوي.

(١) انظر البابليات القسم الأول ج/٣ ص ١٦٦.

(٢) البابليات القسم الأول ج/٣ ص ١٦٦-١٦٧.

(٣) البابليات القسم الثاني ج/٣ ص ٤٥.

فهيّت رجالاً من (سلانيك) أيقظت
رجال هم الأسد الضراغم صولة
دعوا للتساوي دعوة وطنية
فما ضرهم أن أنعم الله بالهدى
تعجلّ لما في ردها نعمة بها
فما منعت حزب التساوي حصونه
ولم يبق من تلك العروش وإن علت
توجل عنها صاحب التاج واغتنى

إلى العدل عين الحزم والحزم نائم
لدى الروح لا أسد العرين الضراغم
أجاب لها منهم جهولّ وعالم
عليهم بها أن الخليفة ناظم
تقهقر عنه النصر والنصر قادم
ولا دفعت أحراره والتمايم
بناء سوى الآثار فهي علائم
ترن بهاتيك القصور الحمام

والشاعر عبد المطلب الحلبي من كبار دعاة اللامركزية الإدارية في العراق التي كانت تدعو إلى إنشاء دولة عربية تتمتع بحكم ذاتي في إطار الدولة العثمانية ويعد ذلك تطوراً كبيراً يشهد الوعي الوطني في هذه الفترة.^(١) غير أن حدوث الحرب العالمية الأولى قد أربك هذا الوعي وسبب لدعاة النهضة العربية إحراجاً كبيراً، لأن الحرب وقعت بين معسكرين مختلفين، أحدهما مسلم والآخر غير مسلم، كانوا يفتنونه بالكفر مما أدى ذلك إلى أن يتنازل بعض الشعراء عن المبادئ الوطنية التي كانوا ينادون بها ومنهم شاعرنا عبد المطلب الحلبي الذي وقف إلى جانب العثمانيين ليكون منسجماً وعقيده الإسلامية، غير أن النبذة العربية ظلت بارزة في معظم قصائده، مما يجعلنا نؤمن تمام الإيمان بأن تلك الأفكار الوطنية مازالت راسخة في ذهنه، وهي المحرك الفاعل لمشاعر عبد المطلب الحلبي، ونلمس مما قلناه واضحاً في معظم القصائد التي كتبها في تلك الفترة ومنها هذه القصيدة التي استصرخ بها العرب وحثهم على النهضة وإحياء المجد العربي من جديد ويرى أن ذلك يتحقق لهم، بالعلم والمعرفة.

بني العرب أن العصر بالعلم أزدهرا
تأخرتم عن حاكم وتقدمت
تتقظ أهل الغرب للعلم قبلكم
أنوماً وصبح الرشد قد سل سيفه
ألستم بني القوم الذين بعلمهم
لقد أخذوا عنها المعارف دونكم

وصبح الهدى من ظلمة الجهل أسفرا
به أمم من حقها أن تؤخر
ونمت لقد طالت بكم رقدة الكرى
على مفرق ليل الضلال فأدبرا
بنو الغرب حازوا في الفنون التصدرا
فكانوا بها منكم أحق وأجدرا^(٢)

وله قصيدة أخرى يقول فيها :-

العرب عرب وإن طاحوا وإن سقطوا
لا يرسل العز إلا حيثما رحلوا
سائل بهم أمم الغرب التي ارتفعت

وما سواهم وإن جلوا هم النبط
وليس يهبط إلا حيثما هبطوا
فكل وجه به من حدهم شرط^(٣)

لقد أصاب الشاعر محمد علي اليعقوبي ما أصاب غيره من شعراء الحلة والعراق من اضطراب المواقف السياسية في هذه الفترة، إذ تحول معظم الشعراء من مؤيدين للعثمانيين إلى مناضلين. وكان ذلك بسبب ازدهار هذه الفترة بالأحداث السياسية الكبيرة وتسارعها وتناقضها في بعض الأحيان، منها استبداد الأطماع الاستعمارية،

(١) انظر نهضة العراق الأدبية ص ٣٣٦ والباقيات ج/٣ القسم الثاني ص ٤٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٢.

(٣) ديوان اليعقوبي، مطبعة النعمان النجف ص ٢٢٧.

وتسابق دول الغرب حول الاستحواذ على ممتلكات الدولة العثمانية ، وظهور الحركات التحررية ، التي تبغي التحرر من السلطة العثمانية. إذ إن مثل هذه المواقف كانت تفرض على الشعراء الوقوف إلى جانب العثمانيين في حريهم ضد الغرب الاستعماري ، أو قمع حركات العصيان في الدول الأوربية الواقعة تحت نفوذ العثمانيين ، وذلك يعد منسجماً وعقيدتهم الدينية ، غير أن الاتحاديين ، لم يقدروا مواقف العرب المؤيدة لهم ، بل غالوا في عنصريتهم وخير مثال يمكن أن نسوقه واقعة عاكف في الحلة عام ١٩١٦ ، التي قتل فيها العثمانيون عدداً من أبناء الحلة وهدموا وأحرقوا محلات بكاملها ، مما جعل اليعقوبي ينفذ يده من العثمانيين ، ويندد بجرائمهم ويهجوهم هجاء مقذعاً في قصيدته التي قالها في رثاء أستاذه محمد القزويني حيث جاءت وفاته قبل حدوث واقعة عاكف بثلاثة أيام قائلاً:-

تبكي بتيار الدموع وحق أن	تبكي لبحر نوالها التيار
حسرت وكنت لها الدلاص فأضبحت	غرض الخطوب وعرضة الاخطار
قاست من الأهوال بعدك أهلها	مالم يجُل بسوانح الأفكار

ومنها قوله التي يصف جرائمهم التي ارتكبوها بحق أهل الحلة:-

قتل ونهب وانتهاك محارم	وحريق أوطان وهدم الديار
ما كان أقصرها يداً لولم يكن	يخلو العرين من الهزير الضاري ^(١)

وفي البيت الأخير يشيد بموقفه الحازم الذي اتخذ في العهد الحميدي الذي تمثل في رفعه برقية تطالب السلطان عبد الحميد بالتتحي عن الحكم ، أو بالرضوخ لإرادة الأمة والقبول بالحياة الدستورية والسير بموجبها، وفعلاً انتهت الأمور إلى ما أراده القزويني بتتحية السلطان عبد الحميد عن الحكم. أما الشاعر محمد مهدي البصير الذي لمع نجمه في أثناء الحرب العالمية الأولى ، فقد عكس في شعره التطور المتسارع في الوعي الوطني ، الذي شهده العراق بعد إعلان الدستور العثماني عام (١٩٠٨) ، فالبصير بحكم نشأته الدينية رأيناه في بداية حياته الشعرية السياسية إلى جانب الدولة العثمانية في مواقفها وحروبها ضد دول الغرب ، ويبدو ذلك واضحاً في قصيدة (أبطال العثمانيين) التي مدح فيها أنور باشا ناظر الحربية العثماني :-

عقد الإله لواءك فهو مظفر	بالنصر ما بين الممالك ينشر
وأطال عُنُق الدين سيفك اذ غدا	في حدّه باع العدو يقصر
ياصاننا تاج الخلافة و الذي	فيه أقيم سريرها والمنبر

ومنها قوله :-

أمكافح الدول الثلاث بعسكر	يغنيك عنه من المهابة عسكر ^(٢)
---------------------------	--

فقد أيد البصير الدولة العثمانية لأنها تحكم بأسم الإسلام ، وتدعى حماية أرض المسلمين من المطامع الغربية ، ولكنه يسحب هذا التأييد ، وينقلب إلى ناظم وساخط يسخر من أنور باشا الذي مدحه بالأمس ، بسبب انحياز الأخير إلى ألمانيا ، فقد عد البصير عمله جريمة لا تغتفر ، لأنه باع دولته للألمان في سوق المتاجر بثمن بخس ولا هم له إلا جمع المال وإرضاء قيصره الألماني فيقول على لسان أنور^(٣).

رجوت بموقفي فوزاً ميبناً	فسقت لك العذاب به مهيناً
--------------------------	--------------------------

(١) ديوان اليعقوبي ، محمد علي اليعقوبي ، مطبعة النعمان ، النجف ج/١ ص ٢٢٧

(٢) انظر محمد مهدي البصير شاعراً منشورات وزارة الثقافة والإعلام - بغداد ١٩٩٨ ص ٣٠.

(٣) محمد مهدي البصير شاعراً، ص ٣١-٣٢.

ريحت بك المواهب والعطايا
فبت مع الشعوب الأخرينا
إذا الدينار اسمعني رنينا
فديت لصوته منك الأنينا
أصبت رضاء قيصري المفدى
فأهون بالرجال الساخطينا
أقمنا للسياسة فيك سوقاً
به الألمان كانوا مثرتينا

غير أن موقف أنور باشا المؤيد للألمان لم يكن سوى الشرارة التي فجرت نار الثورة التي كانت تضطرم في صدر البصير ،نتيجة مغالاة الاتحاديين في سياستهم العنصرية ضد العرب ، وقد عبر البصير عن ذلك في قصيدته ((أحرية أم عبودية)) التي عرى فيها سياسة الاتحاديين القائمة على الخداع والتضليل.

سل الاتحاديين كيف تحكموا
بحرية يستعبدون بها الحرا
فكم غمطوا حقاً وكم آثروا هوى
وكم نكروا عرفاً وكم عرفوا نكرا
وكم سلبوا مالا له بسطوا يدا
على الغصب ما أبقت لذي جدة وفرا
وكم نصبوا للأبرياء مشانقاً
وكم كبلوا حراً وكم ذعروا خدراً^(١)

لقد أثرت سياسة الاتحاديين العنصرية في نفس شاعرنا ،وأجبت في نفسه الروح الوطنية،وأصبح واحداً من أبرز دعاة للنهضة العربية الجديدة على غرار الدولة أيام العباسيين فيقول:-

هبي إلى المجد يا بغداد ناهضة
وليتبع خطط الآباء ابنائك
وأنت أنت إذا ما زاع منقلب
فواصلني لسرير المجد مسراك
عودي بتاج بني العباس منتظماً
فلا مقر لذاك التاج الآتي^(٢)

ويعكس لنا شعر البصير تطوراً آخر شهده الشعر العربي في هذه الفترة هو ظهور الحس الوطني الداعي إلى إنشاء دولة عربية مستقلة ،فقد اعتنق البصير هذه الأفكار الوطنية وعبر عنها في معظم قصائده التي نظمها في هذه الفترة ومنها قصيدته (حول مدينة النبي) التي نظمها عام ١٩٠٨، فقال:-

يا دار ملك جلاله القرآن بشراك هذا يوم بدر الثاني
يا أرض يثرب طهرتك جحافل كحلت بترك أعين الفرسان
عقد الحسين عليك ألوية الهدى فلذاك حل معاقل التيجان^(٣)

أما نضال البصير في ظل الاحتلال الإنكليزي للعراق ، فقد كان اشد ضراوة ، حيث وقف البصير بالمرصاد لسياسة الإنكليز القائمة على الخداع والتضليل وعمل على تعريضها ، وترغم الحركة الوطنية المناوئة لهم ، ويبدو ذلك واضحاً في تنديده بمؤتمر السلام الذي رأى فيه بداية لإشعال الفتن والحروب بين دول العالم،فقال:-

أمؤتمر السلام عقد صلحاً أغظت مع الهلال به الصليب
فما أطفأت للأحقاد نارا بل قد زد جمرتها لهيباً^(٤)

(١) محمد مهدي البصير شاعراً، ص ٣٣.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٢.

(٣) محمد مهدي البصير شاعراً، ص ٣٣.

(٤) المصدر نفسه ص ٣٣.

الخاتمة :-

وفي ختام البحث لابد لنا أن نقول بأن البحث قد توصل إلى أن عوامل النهضة كانت ذاتية تتعلق معظمها بطبيعة الحلة ، والمجتمع الحلي. أما تأثير العوامل الخارجية فقد كان ضعيفاً أي ان النهضة ظهرت إلى الوجود بجهود أبنائها ، وبفضل طبيعتها الساحرة الجميلة. وبين البحث أن للنهضة الأدبية في الحلة دوراً مشرفاً في حفظ تراث الأمة الأدبي وبعثه من جديد. وكان لهذه الجهود الفضل الأول في حفظ هوية الأمة من الضياع ، على الرغم من ضراوة التحديات التي كانت تواجه العراق ، إضافة إلى ذلك فإن لها ابلغ الأثر في تطور موضوعات الشعر وأساليبه وبخاصة بعد إعلان الدستور فقد تحرر الشعر من قيود الصنعة ونزع الثوب القديم واخذ يتماشى مع أذواق العصر بعد أن تحرر من فرديته واخذ يعبر عن مشاعر الجماعة ويحمل آمالها وتطلعاتها ويبدو ذلك واضحاً في شعر محمد مهدي البصير .

وأظهر البحث الدور الذي لعبه شعراء الحلة في هذه الفترة والخدمات الجليلة التي قدموها إلى المجتمع من خلال شعرهم . *

المصادر والمراجع

١- الأدب العربي الحديث دراسة في شعره ونثره، د. سالم الحمداني ، د. فائق مصطفى احمد جامعة الموصل

١٩٨٧

٢- الاتجاه القومي في الشعر العراقي الحديث ، حسن دخيل عباس الطائي ، رسالة ماجستير ، جامعة بغداد ، كلية

الآداب ١٩٨٣

٣- البابليات ، محمد علي اليعقوبي ، مطبعة الزهراء ، ١٩٥١

٤- البيان والتبيين ، الجاحظ ، دار الفكر للجميع ، ١٩٦٨

٥- تاريخ الأدب العربي في العراق ، عباس العزاوي ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٦٢

٦- تاريخ الحلة ، يوسف كركوش ، المطبعة الحيدرية ، النجف ١٩٦٥

٧- تاريخ العراق في العصور المظلمة ، جعفر الخياط ، دار الكتب بيروت .

٨- تاريخ اليمن ، عبد الواسع بن يحيى الواسعي اليمني ، مطبعة حجازي

٩- تطور الشعر العربي الحديث في العراق ، د. علي عباس علوان ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد

١٠- ديوان حيدر الحلي ، عنى بنشره علي الخاقاني ، ج/ ١ ، ١٩٥٠ ، ج/ ٢ ، ١٩٦٤ .

١١- ديوان صالح الكواز الحلي ، مطبعة النجف ، ١٣٨٤

١٢- ديوان اليعقوبي ، محمد علي اليعقوبي مطبعة النعمان ، النجف ١٩٥٧

١٣- الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر ، ابراهيم الوائلي مطبعة المعارف ، ١٩٦١

١٤- شعر صفي الدين الحلي ، د. جواد احمد علوش ، بغداد ١٩٥٩

١٥- الشعر العراقي أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر ، د. يوسف عز الدين ، دار المعارف ، مصر

١٦- الشعر العراقي الحديث مرحلة وتتطور د. جلال الخياط ، بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٧

١٧- الشعر في الحلة ، محمد حسن الحلي ، رسالة ماجستير جامعة بغداد ١٩٧٧

١٨- الشعر والشعراء في العراق ، احمد أبو سعد ، مطبعة المعارف ، بيروت

١٩- قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملايكة ، دار العلم للملايين ، بيروت ص ١٢

- ٢٠- المجموعة الشعرية الكاملة، محمد مهدي البصير، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٧.
- ٢١- نظرات في التيارات الأدبية الحديثة في العراق ألقاها د. جميل سعيد، الدراسات العربية ١٩٥٤ ص ٤
- ٢٢- نهضة العراق الأدبية، محمد مهدي البصير، مطبعة المعارف، بغداد

المجلات:

- مجلة كلية الآداب جامعة بغداد العدد ٢٦ لسنة ١٩٧٩ (أدب العراق في العهد العثماني) د. علي الزبيدي.
- محاضرات في أدب العصور المتأخرة ألقاها الدكتور احمد جواد علوش على طلبة قسم اللغة العربية كلية الآداب ١٩٧٣.
- مجلة صدى السلام العدد ١٨٣، مطبعة النعمان النجف.

